فلسفة الأسماء

للأستاذ السيد شحاتة

إن أول ما يصادف الإنسان فى حياته فيوسم به ويسق ملازماً له، ويشهر به حتى بعد موته، ويمتازبه عن غيره من الناس، هو الاسم . وقد ترتفع بالإنسان الشهرة وذيوع الصيت إلى أن يكون طبيباً نطاسيًا أو شاعراً فحلا أو عالماً نحريراً أو خطيباً لسناً أو صانعاً ماهراً فلا يعرفه الناس ولا يقرون له بفضل إلا مقروناً باسمه

فالاسم هو السمة الواضحة البارعة التى تفصح عن صاحبها وتبين عن مواهبه . وفى القديم والحديث تفنن الناس فى انتقائها وجهدوا فى اختيارها حتى اتخذوا من الأسماء علامات للخير والشر والذكاء والنباء والسعادة والشقاء

ولرجال التربية مذهب فى تسمية الأبناء فهم يرون أن أول واجب على الأب أداء هذا الدين على وجه موفق محبوب باختيار اسم جميل يكون عنواناً محبباً مقبولاً لابنه على تقادم الأيام، يرى فيه عزة وكرامة لامهانة وسخرية. فهم ينصحون الآباء بأن يؤدوا الأمانة أحسن أداء فلا يسمون أبناءهم باسم قبيح مرذول حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب

وفى الحقيقة أن للاسم تأثيراً كبيراً فى توجيه عقلية الانسان وفى سعادته وفى نبوغه وفى شهرته . وقد تسعد الأسماء أو تشقى بسعادة أصحابها أو شقائهم . وقد يتهافت الناس على اسم فيشيع ويذيع لأنه لنبي أنار الظلمات ، أو ولى أزال الشبهات ، أو قائد أو زعيم طارت شهرته، فأخذ الناس بسناه، وتأصل بينهم من اسمه سحر يجذبهم إليه

الإنسان والأسماء

لقد كانت التسمية عند الإنسان هى المحور الأساسى الذى تدور عليه قواعد التسمية أجمع ، لأن الاسم من أفضل علامات التكريم ومن أبين دلائل الرقى والكمال . وما من شك فى أن الله قد كرم بنى آدم وفضلهم على سائر المخلوقات

ولكنا على رغم هذا نجد الانسان نفسه قد استعار من أسمائه ومن غيرها فسمى الخيل والشوارع والقطط والكلاب والبلاد وغير ذلك فأطلق على الخيل (فواز) (غاوى) (سحاب) ... الخ

وفى كل منزل يسمى الناس كلابهم وقططهم بأسماء خاصة يقصدون فيها إلى الرشاقة والدلال . وكذلك الشوارع تسمى بأسماء يتخذها المختصون من التاريخ أو الموقع أو اسم أحد الفطان أو الملوك والزعماء

ولقد غدا تكريم الملوك والعظماء يأخذ من أسماء الشوارع أعز مكان . فهم يطلقون اسم الملك أو العظيم حبًا فيه وتخليداً لذكراه واعترافاً بأياديه

والمدن تنسب إلى الملوك (كالابراهيمية. الفاروقية. الاسماعيلية بور سعيد . بور فؤاد . الاسكندرية) . وقد تدل على صناعة أو زراعة راجت فيها مثل (معمل الزجاج. المعصرة. كفر الزيات. كفر البطيخ . التل الكبير) . ومنها ما تنسب إلى شخص اشتهر فيها مثل (أبو حماد. سيدى جابر. جرجا) — نسبة إلى مارى جرجس — ولبعض المدن أسماء غريبة بعضها من اللغة القبطية القديمة مثل (دمنهور) . وهور : أحد آلهة المصريين القدماء . ودمن : أى مدينة

وقد انساق الناس فى تعليلات طريفة لبعض أسماء المدن والقرى فهم يزعمون أن يوسف عليه السلام تقابل مع زليخا زوج العزيز بعد أن طوي شبابها تتابع الأيام فذوت نضرتها وذبل جمالها ـ تقابل معها فى المكان المعروف بمديرية الجيزة فقال لها (أصبح البدرشين) فلذلك سميت مدينة البدرشين باسمها هذا

ويزعمون أن القائد جوهر أراد أن يضع أسس البناء فى عاصمة مصر في ساعة سعيدة يقدرها رجال الفلك، فجعل أجراسا تدق للبنائين ليضعوا البناء إذا ما حانت ساعة سعيدة، ولكن الحظ خانه إذ حرك طائر حبال الأجراس ، فرنت ، فوضع الأساس فى ساعة القهر فسميت القاهرة . وهذه مزاعم دفع الناس إليها حرصهم على المبالغة فى التعليل .

والمدن كالانسان خاضعة عند تغيير اسمها إلى قانون فلا يجوز تغيير اسم بلد إلا بعد موافقة وزارة الداخلية ووجود ضرورة لهذا التغيير .

التسمية عند القدماء

لقد وضعت أسماء الأعلام والأجناس للدلالة على أفراد النوع الانسانى وما يحيط به فى بيئته الطبيعية وما يبتكره فى حياته الفكرية . وليس من شك فى أن وضع هذا النوع من الأسماء قد جاء سابقا فى المرتبة على وجود الأفعال والحروف التى ما وجدت إلا لتربط الأسماء فى الجمل المختلفة .

ولكن المرجح أن الانسان لم يتذوق التسمية بمعناها السامى الفنى، ولم يعن بها ولم يتفنن فى اختيارها قبل أن يعرف الحضارة والمدنية ويسمو إلى أفق الحياة الكاملة. وإنما كان الناس فى عصور الجهالة يطلق بعضهم على بعض أوصافا تميز كل واحد منهم من الآخر؛ وهذه الأوصاف تدل على ميزة كل شخص بقدر الامكان، كقولهم (الرجل القصير . الرجل البدين . ذو العين الواحدة . وهكذا . . .) ولكنا نحن فى عصورنا هذه عصور الحضارة والمدنية نلجأ إلى ذلك فى مواطن كثيرة . فاذا أردنا وصفا دقيقا لمن لا يعرف اسمه وصفناه بأخص صفاته وأظهرها

وقد كان المتوحشون يخافون أن تستحسن العفاريت والأرواح الشريرة أسماء أولادهم فتقبض أرواحهم، فلذلك كانوا يسمون أولادهم بأسماء بشعة (القذر . الوغد . الجبان) وكان بعضهم يسمى الطفل باسم حادث تاريخى (القحط. الوباء. الحرب) وما زلنا نحن نسمى أولادنا بأسماء تاريخية (عيد . خميس . جمعه ، شعبان ، رجب ، محرم ، ربيع .) ولبعض الأسماء القديمة دلالة تدل على ميزة بها أو أصل طبيعتها ؛ فقد اشتق (آدم) من أديم الأرض لأنه خلق من الطين واسم (إبليس) من الابلاس وهو اليأس .

التسمية عند العرب

ذهب عرب الجاهلية مذاهب شتى فى تسمية أبنائهم ، فمنهم من تفاءل بالنصر والظفر فسمى (غالب . غلاب . ظالم . طارق . معارك . منازل .) ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ فسمى (سعد سعود . غانم . غياث . غوث .) ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن لاظهار القوة فسمى (صخر. جندل . حجر. جبل. فهر)

ومن العرب من كان يخرج وزوجته قد جاءها المخاض فيسمى من تلده امرأته بأول اسم يقابله كائناً ما كان (سبع . ثعلب كلب .) ويروون فى هذا أن أسماء بنت دريم من قبائل العرب كانت تلقب (أم الأسبع) لأنها سمت أولادها (كلب . أسد . ذئب . فهد . ثعلب . سرحان . خثعم . هر . ضبع)

ومن العرب من أضيف إلى عبودية الأصنام (عبد العزى . عبد مناه) وقد كان فى الأمة العربية من اشتهر بلقب غلب عليه فى شعره حتى أصبح علماً له مثل : (عمرو بن رباح السلمي) (أبو الخنساء — الشاعرة المشهورة) إذ سمى (الشريد) لقوله :

تولي إخوتى وبقيت فردا وحيداً فى ديارهم شريدا

ومنهم (عمرو بن سعيد — اللقب بالمرقش) لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

ومنهم سالم بن نهار العبدى الذى لقب بالمزق لقوله :

فان كنت ما كولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

وكذلك امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية يلقبونه (بذى القروح) لقوله :

وبدلت قرحاً داميا بعد صحة فيالك من نعمى تحولت أبؤسا!

وما زلنا نحن فى عصرنا هذا نسمي الناس بشىء يرتبط بهم من صناعة أو أى عمل ؛ فعندنا الآن ألقاب ربما شاعت بين الناس حتى طغت على شهرة الاسم الحقيق ، فأصبح المسمى لا يعرف إلا بها (الصحاف العجوز. أبو ثبينة . برسوم المجبر. ابنة الشاطئ)

وفى العرب أسماء كثيرة من هذا النوع . كما أن بينهم أسماء أخذت فى حوادث معينة — مثل جرير الشاعر الأموى المشهور؛ فقد ذكروا فى ذلك — أن الجرير فى اللغة هو الحبل . وقد سمى الشاعر بذلك لأن أمه رأت في منامها وهى حامل به أنها تلد حبلا يخنق الناس، فذهبت فى الصباح إلى معبر المرؤيا وقصت عليه رؤياها فقال لها (لتلدن ولداً يكون شراً على الناس) وفعلا كان كذلك جرير . وكانت أمه ترقصه وهو صغير وتغنى له :

قصصت رؤياي على ذاك الرجل فقال لى قولا وليت لم يقل
لتلدن عضلة من العضل فا منطق جذل إذا قال فصل

وسمى الجاحظ جاحظا لجحوظ عينيه . والمتنبي لادعائه النبوة كما اشتهر كثير بنسبتهم إلى بلادهم أو قبائلهم (البحترى . أبو العلاء المعري . الطائى . الخزرجى . المزنى) ونحن نسمى الأشخاص نسبة إلى بلد أو صناعة (ابراهيم المصرى . خليل الزيات . بيومى الطبال . محمد النجار . خديجة العياشة)

وكذلك (الصباغ . الجمال . الدباغ) ومما تحسن الاشارة إليه بمناسبة الدباغ. أن رجلا فى الماضى القريب اسمه ابراهيم الدباغ اشتهر بكثرة الأكل، فأطلق الناس كلمة دباغ على كل إنسان يكثر الأكل

أما النسب إلى القبيلة كما كان الحال عند العرب، فقلما نجده الآن لشيوع روح المدنية وتقطع التواصل بين الناس وعدم الاعتزاز والفخر بالقبيلة كما فعل العرب؛ ولأن الوحدة أصبحت للدولة لا للقبيلة

الاسماء والاديان

لم تكن للأسماء فى العصور الأولى صبغة دينية خاصة، إلا أن الحال تغيرت بعد ظهور المسيحية، إذ أخذ المسيحيون يقلمون شيئاً فشيئاً عن بعض الأسماء اليهودية والوثنية ثم يختارون أسماء جديدة

وفى أوائل عهد النصرانية درج النصارى على أن يسموا أبناءهم بأسماء القديسين والأنبياء، إذ يعلن الأب اسم ابنه جهاراً عند المعمودية فيصبح اسماً معترفاً به قانوناً

وفى فرنسا لا يجوز لأحد أن يبتدع لابنه اسماً غريباً لم يعرفه الناس من قبل، وما يزال فى فرنسا حتى اليوم سجل رسمي يحتوى الأسماء التى يجوز للانسان أن يختارها لأبنائه ولا يجوز له أن يسمى بما عداها؛ وهذا السجل يهذب من وقت لآخر باضافة أسماء حديثة وحذف أخرى قديمة

وفى أسبانيا — حيث دياناتهم الرسمية الكاثوليكية وقد كانت حكوماتهم ملكية — كان الآباء مقيدين عند تسمية أبنائهم بطائفة من أسماء القديسين والقديسات مأخوذة من تقويم الكنيسة؛ ولكن بعد زوال الملكية قريباً قد أبطل هذا وصار الآباء أحراراً فى تسمية أبنائهم

ولما ظهر الاسلام تطورت الأسماء عند العرب، إذ سمى النبي (محمداً) مع أنه لم يسم أحد من قبل بهذا الاسم؛ ثم شاعت الأسماء المضافة إلى عبودية الله وتعدت لفظ الجلالة إلى غيره من أسماء الله الحسنى. والآن نجد بين المسلمين نحو النصف من الأسماء تدعى محمداً أو ما اشتق منه مثل محمود. أحمد. حامد، وقد أثر عن النبي (صلعم) أنه قال (خير الأسماء ما حمد ثم ما عبد)

والأديان على العموم لا تحرم اسما ولا تبيح آخر، بل الانسان حر فى التسمية بما يشاء. غير أنه على الرغم من هذه الحرية المطلقة نرى بعض أسماء اختص بها المسلمون، وأخرى اختص بها اليهود، وغير ذلك من الأسماء تفرد بها المسيحيون. فمن أسماء النصارى الخاصة (بطرس. ميخائل. حنا. جرجس. عبدالمسيح هيلانة. ماري) ومن أسماء اليهود الخاصة (باروخ. عزرا. كوهين ليفى. حانان) ومن أسماء المسلمين الخاصة (محمد. مصطفى. حسن على. فاطمة. عائشة) ومن الأسماء المشتركة (يوسف. سليمان. ابراهيم. داود. يعقوب. توفيق)

وفي الواحات المصرية كما فى جزيرة قبرص أسماء مخلوطة، فهناك بطرس حسين جورج محمد. نقولا عثمان. وفى سوريا من المسيحيين من سمى ابنه محمدا. وفى مصر تميل الأسماء المسيحية شيئا فشيئا نحو الاسلامية، حتى أنها لتشتبه بها فى كثير من الأحيان. وفى اسبانيا حيث مكثت الديانة الاسلامية نحو ثمانية قرون، نجد كثيرا من أسماء الأجداد الأولين للأسبان المعاصرين تنتهى بأسماء إسلامية.

(البقية فى العدد القادم)

السيد شوقي